

علماء حوض الشلف بما ورد في مدونة

-تعريف الخلف برجال الشلف-

لأبي القاسم محمد الحفناوي(*)

الأستاذ: عبد القادر بن عزّة
(جامعة مستغانم)

تقديم المدونة:

يقدم الحفناوي كتابه بالإشارة إلى تساوي بلدان المغرب العربي في التأليف خاصة وطلب العلم عامة، فقد يشار بهذا إلى وجود جامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس والمغرب الأقصى وخلو الجزائر من شبيه هذين الجامعين.

يقول الحفناوي "والظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديما، في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبواب، ووقف على معقوله ومنقوله، فتمكن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا، ولراياتها رافعا، مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى..."^(١).

ويؤكد الحفناوي على دور العلماء قديما وحتى زمانه، وما بذلوه من جهد التصنيف والكتابة في مختلف العلوم، حتى صاروا مضرب أمثال في المغرب والمشرق يقول "...هذه تآلفهم نثرا ونظما، منتفع بها في المشرق والمغرب تعلما وتعلّيما، مشتهرة فيهما اشتهاؤا مؤلفيها عند كل طلب علم وفي كل كتاب..."^(٢).

والظاهر أن حبّ المعرفة عند الحفناوي ورصده لأخبار علماء الجزائر عبد العصور كان من باب الغيرة على الوطن وتدوين ما يمكن تدوينه ليبقى دخرا للخلف يقول محلا ذلك:

المرء بعد الموت أُحْدُوثَةٌ يَفْنَى وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُهُ
فَأَحْسَنُ الْحَالَاتِ حَالُ امْرِئٍ تَطِيبُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَخْبَارُهُ

كما يمكن أن نشير إلى ذكاء الحفناوي حينما أشار إلى حاكم الجزائر آنذاك فذكره بالاسم وبلقب التعظيم "للحازم الخطير سمو الوالي العام جونار...". وبعد الإشادة بأعمال هذا الحاكم العام، انسابت بعد جملة لتثني على صنيع علماء أمة الإسلام وفضلهم على حضارة العرب يقول: "... ولم يصغر الغرب إلى ما صار إليه في التاريخ الجديد إلا بالتلمذة لأهل العلم وبالمنافسة في المظاهر والمناظر المستنبطة من المعارف، ولولا ذلك ما بزغت فيه شمس الحياة الحاضرة، ولما سارت في أهله روح الشعور بأفاق أخرى فضاء المعقولات..."^(٢).

كما يشير الثعالبي في مقدمة كتابه إلى تدشين "المدرسة الثعالبية" بالجزائر العاصمة، والتي استعمل في تخطيط بنائها الأسلوب الأندلسي في المعمار فكانت على غاية الإحكام والإتقان، على حسب وصفه، ثم يذكر نسبة تسميتها إلى الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، فكانت قبلة للعلماء ولطلبة العلم.

إلا أن أهم ما أشار إليه الحفناوي أن القبة الداخلية للمدرسة، قد نقش بداخلها أسماء علماء الجزائر يقول في ذلك "ثم إذا رفع بصره نحو القباب الخمسة يرى في قواعدها بالخط الأندلسي، أسماء أجلة من رجال العلم العربي في القطر الجزائري... ففي قواعد القبة الكبرى ١٢ اسما، وفي قواعد القباب الأربعة التي في زاوية المدرسة ٣٢ اسما، ومع كل الأسماء تواريخ الولادة وتواريخ الوفاة بعدها، وترتيبها ترتيبا هجائيا..."^(٣).

ويذكر الحفناوي أنه نقل هذه الأسماء بتواريخها إلى القسم الأول من كتابه، والتي استعان في تدوينها بثبت من المراجع يذكر منها: عنوان الداربية - البستان - الديقاج - نيل الابتهاج - كفاية المحتاج - خلاصة الأثر - سلك الدرر وصفوة من انتشر - جذوة الاقتباس - نفح الطيب وفيان الأعيان...

فالحفناوي يثبت مراجع بحثه دون الإشارة إلى أصحابها، مع مضمضه من عدم عثوره على ترجمة بعض كبار العلماء يذكر منهم "الرماسي - الأخضرى وغيرهم، مع إيراده السبب في ذلك يقول: " ولم أعثر على غير هذه الجملة من كتب التاريخ بعد

البحث الطويل في مضانه، ومحاولة مساجن المؤلفات بكلّ حيلة ووسيلة، لأنّ المستحوذون عليها يفضلون بقاء هذه الذخيرة للأرضة على إفادة طالبها بها واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك...^(٥).

* علماء حوض الشلف في مدوّنة الحفناوي:

لقد ترجم الحفناوي لعدد لا بأس به من علماء الجزائر من أصحاب التآليف المذكورين في المصنفات السابقة الذكر، لذلك نراه يركز على أسمائهم مع نسبتهم إلى بلدتهم من حيث مسقط الرأس أو الإقامة الطويلة فيها، إلا أنه لم يسجل في كثير منها تواريخ ميلادهم ولا وفاتهم، وهو بذلك يبعد كثير من المشاق عن الطريق الذي يريد الحفر في ذاكرة تاريخ علماء الجزائر.

وقد حاولنا حصر كلّ علماء حوض الشلف، كما أدرهم في مدوّنته على الشكل

الآتي:

- محمّد بن عبد الجليل التنسي:

يقدم له بقوله "الفقيه الجليل، الحافظ الأديب، المطلع من أكابر علمائها الجلّة...، وقد أخذ العلم عن الأئمة أبي الفضل ابن مرزوق، وقاسم العقباني، وابن الإمام، والإمام الصولي محمّد النجاري، والإمام ابن العباس وغيرهم، واشتهر علمه حتى لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي أنّه سئل حين خرج من تلمسان عن علمائها فقال: العلم مع التنسي، والصلاح مع السنوسي، والرياسة مع ابن زكري" ليردّف بعدها قوله: "والله أعلم بصحته، دون أن يذكر المرجع".

ثم يصنّف له بعض من تأليفه فيذكر له "نظم الدرر والعقيان في دولة بني زيان" و"راح الأرواح" دون أن ينسى من أخذ عنه العلم، فيشير إلى أبي عبد الله بن سعد، والخطيب ابن مرزوق السبط، وابن العباس الصغير الذي قال: "لازمت مجلس الفقيه العلم الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام، وحضرت إقرائه تفسيراً وحديثاً وفقهاً وعريّة وغيرها، وقد توفي محمّد التنسي في جمادى الأولى سنة ٨٩٩هـ.

- إبراهيم بن يخلف المَطْمَاطِي التنسِّي:

هو إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسِّي المَطْمَاطِي، انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب كلّها.

كانت ترد عليه الأسئلة من تلمسان وبلاد إفريقية كلّها، عاش زمن السلطان يغمراسن بن زيان بتلمسان، فكان يدعوهُ للورود على تلمسان فيمتنع، فقد يرد زائرا ويقيم أشهراً وينصرف إلى تنس.

ثم لما كان شأن مغراوة رحل لتلمسان فطلب منه الفقهاء والسلطان القيام بها فأجابهم، فاستوطنها ودرّس بها وانتفع بها خلق لا يحصون، وإليه الرحلة شرقا وغربا. وكان من أولياء الله الجامعين بين علم الباطن والظاهر، حيث يذكر له الشيخ أبي عبد الله بن الحاج صاحب كتاب "المدخل" عدّة كرامات وقعت له في بيت الله الحرام وفي مصر وغيرها.

يذكر صاحب "الرحلة" الشيخ أبو عبد الله العبدري الحاجي وفاته بتلمسان دون تحديد لتاريخ ميلاده ولا وفاته.

- عليّ بن محمّد بن أحمد محمّد التنسِّي:

هذه أقصر ما ذكره الحفناوي من تراجم لعلماء حوض الشلف إذ يقول: "هو ابن أخ البدر محمّد بن أحمد شقيق الشهاب أحمد، أخذ عن أبي القاسم النويري، والأميري علوم الحديث، ودرس الفقه بالجمالية بعد منازعة القرافي، وبجامع طولون بعد الحسام بن جرير، ثمّ ترفع عن تعاطيه وتصدي للإقراء.

استقر في قضاء الشام بعد أن تعب الناظر الخاص في الإبقاء عليه بالديار المصرية، ولد عام ٨٣١هـ، وتوفي في السابع من شوال سنة ٨٧٦هـ.

يظهر على الشيخ علي بن محمّد التنسِّي أنّه لم يستقر لا بالتنس ولا بإحدى حواضر العلم في الجزائر، بل ارتحل إلى المشرق، فكان يلقن العلوم الشرعية بمساجد مصر والشام.

وعلى الرغم من قصر الترجمة التي قدمه بها الحفناوي في مدوّنته، إلا أنّه أفلح في الوصول إلى تحديد تاريخ مولده ووفاته على غير ما فعل مع الكثير ممن ترجم لهم.

- الشيخ واضح الشلبي:

أورد له الحفناوي ترجمة أطول، لما وجد له من مادة خصبة تناقلتها كتب الصوفية يقول العلامة أبو عمران موسى المازوني في ملخص كتابه "ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار": "كان الشيخ سيدي أبو البيان واضح فيما حدّث عنه الثقات، قاهرا لأحواله، مجتهدا في العبادة، دائم التوجه إلى الله، قامعا لشهوته، خرج في مبدأ نهايته عن أكل هذه المألوفات، لاسيما ما جرى منها على مُلك أحد.

كان رحمه الله كشيبيان الراعي، عاملا صوّاما قواما إلى أن صار لا يفطر إلّا على رأس أربعين يوما إلّا بشيء من الخبز وحبّ الجودر، وقد نبّه إلى ذلك أحد أحفاده بقوله: "ثمّ انتهى حاله في أخير عمره إلى أن كان من الروحانيين حيث قال:

قد مات قوم وما ماتت فضائلهم وعاش قومٌ وهم في الناس أموات^(٦)

وفي منتصف هذه الترجمة يتعرض الحفناوي على غير عادته المتبعة في نقل التراجم حيث يورد قولاً للقاضي عثمان، يحاول تحديد تاريخ مولده حيث يقول: "وقد بحثت عن تاريخ مولد الشيخ سيدي واضح، وعام وفاته، فلم أجد علم ذلك عند أحد، وكذلك ذكر حفيده أبو محمّد في قصيدته إلّا أنّه توفي عن تحقيق في أواخر القرن السابع"^(٧).

فصل المقال:

إنّ ما قدّمه الحفناوي من تراجم للعديد من علماء وأدباء وصوفية الجزائر قاطبة، لدلالة لما كان يشعر به في أغوار نفسه، من ضرورة ضبط تاريخ رجال هذا البلد، وما قدموه من معارف، عبر سائر الزمن، أمام ما يريد الاستعمار الفرنسي من طمسه ومحوه من صفحات الذاكرة الجماعية.

فعمل الحفناوي يدخل ضمن دائرة إحياء الذاكرة، ومواجهة الآخر ولو بتقديم
اليسير من المعلومات عمّا وصل إليه من مخطوط عن علماء الجزائر، لتذكير الخلف بما
أنجزه السلف في ميدان العلم والمعرفة.

أمّا ما يمكن ملاحظته على خطة المدوّنة فقد رصدناه من خلال هذه الترجمات
لعلماء حوض الشلف كمايلي:

- الترجمة قد تطول لعدة صفحات، وقد تقصر لسطين أو ثلاثة.
- إلحاق اسم وكنية العالم بالنسبة المحلية كقوله: التلمساني- التنسّي-
الشلفي- الوهراني- القسنطيني... والظاهر أن العالم كان يُعرف بتلك
النسبة حتى خارج الجزائر (في مصر والشام وبلاد الحرمين).
- محاولته إدراج أكبر عدد ممكن من علماء الجزائر، لترصدهم الذاكرة
الجماعية، خوفا من الاندثار.
- إغفاله في كثير من الأحيان، ذكر المولد والوفاة، والآثار الأدبية
والصوفية للعالم.
- عدم تتبع خطة منهجية في سرد تراجم المذكورين وربما رجع ذلك إلى
هاجس حفظ الذاكرة أكثر من البحث عن المنهجية العلمية.
- أمانته العلمية في التوثيق حيث ذكر تحت كلّ اسم عالم-الكتاب-
الذي نقل منه الترجمة، حيث وضع في الآخر كلمة -انتهى- كما أشار
إلى تجنبه النقل عن كتابي: البستان- وعنوان الداربية- لما في نسختيهما
من مسخ فاحش على حدّ قوله في غالب الكلمات.

ثبت المراجع:

* هو أبو القاسم محمد الحفناوي- مدرّس بالجامعة الكبير لمدينة الجزائر العاصمة

من سنة ١٨٩٧م إلى ١٩٣٦م، كما كان مرجعا في الإفتاء المالكي.

١- أبو القاسم محمد الحفناوي- تعريف الخلف برجال السلف- المكتبة العتيقة-

تونس- القسم الأوّل- ص١٦٤.

٢- نفس المرجع- ص١٦٥.

٣- نفسه- ص١٦٥.

٤- نفسه- القسم الثاني- ص٢٧٦.

٥- نفسه- ص٣٦٧.

٦- نفسه- ص٥٨٧.

٧- نفسه- ص٥٨٨.